الحمد لله

يبدأ المصحف . بفاتحة الكتاب . وتبدأ الفاتحة بلفظى (الحمد لله) . والمتفق عليه ، أن فاتحة الكتاب هى السورة الثانية التى نزلت كاملة بعد سورة « المدثر » التى نزلت بعد آيات (اقرأ باسم ربك الذى خلق : خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم) . فلماذا بدأ كتاب المسلمين بحمد الله . ولم يبدأ مثلا بأن لا إله إلا الله ، وهو ما بعث به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وما أمر بأن يقاتل الناس حتى ينطقوا بها ، معلنين أنهم يؤمنون بمدلولها ؟

وهل صحيح أن الحمد لله ، كما قال جميع المفسرين ، هى فقط الثناء الجميل على الله عزّ وجل : والإقرار بأنه مستحق للحمد على كل ما يحمد عليه سواه من الصفات والنعم ، أو أن لله حكمة أكبر : من أن نثنى عليه ، وعلى صفاته ، وعلى نعمائه ، إقراراً بربوبيته ، وإذعاناً لألوهيته ، وشعوراً بعبوديتنا لذاته ، وخضوعاً لأحكامه وآياته . لننظر أولا إلى ما قاله المفسرون وهو فى جملته متشابه .

جاء فى القرطبى . عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلىّ الله عليه وسلم قال : « إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى ، الحمد له » . وعن أنس : « إن الله ليرضى عن العبد ليأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » . وعن أنس أيضاً : «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أخذ » . وعن أنس كذلك : « لو أن الدنيا بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك » . وشرح ذلك أبو عبد الله فقال : معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا . ثم أعطى

على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ؛ فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ؛ لأن الدنيا فانية ، والكلمة باقية . هى من الباقيات الصالحات . وقيل فى بعض الروايات : لكان ما أعطى أكثر مما أخذ. فصير الكلمة إعطاء من العبد ، والدنيا أخذاً من الله ، فهذا من التدبير. كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد ، والدنيا من الله ، وكلاهما من الله فى الأصل ، الدنيا منه والكلمة منه ، أعطاه الدنيا فأغناه ، وأعطاه الكلمة فشرفه بها فى الآخرة » .

وروى ابن ماجه عن ابن عمران : أن عبداً من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين (صعب فهمها على الملكين) فصعدا إلى السماء وقالا : يا ربنا إن عبدك قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله عزوجل — وهو عالم بما قال عبده — ماذا قال عبدى ؟ قالا : يا رب ، إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدى ، حتى يلقانى فأجزيه بها » .

وعن أبى مالك الأشعرى : الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن ، أو تملأ ما بين السماء والأرض » .

وقال القرطبى : اختلف العلماء أيما أفضل : قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ، لأن فى ضمنه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ، فى قوله الحمد لله توحيد وحمد ، وفى قوله لا إله إلا الله ، توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ، لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت بأن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .

ثم قال القرطبي : والحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل : والألف واللام لاستغراق الجنس من الحامد ، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى . والصفات العلا .

وقد ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد — على حد رواية الطبرى — إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد ، وقال بعض العلماء إن الشكر أعم من الحمد . لأنه باللسان والجوارح والقلب . والحمد إنما يكون باللسان خاصة . وقيل الحمد أعم . لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعم من الشكر ، لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد ، وروى عن ابن عباس أن « الحمد لله كلمة كل شاكر ، وأن الله قال لنوح عليه السلام (فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) ، وقال إبراهيم عليه السلام (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق) ، وقال فى قصة داود وسليمان : (وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) ، وقال أهل الجنة : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) ، (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ، فهى كلمة كل شاكر .

وعقب على ذلك كله القرطبي فقال : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان . وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر ، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد ، وعلى الشكر ، والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفًا ، فصار الحمد أعم فى الآية لأنه يزيد على الشكر .

وقال شفيق بن إبراهيم فى تفسيره الحمد لله قال : وهو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك شيئًا لتعرف من أعطاك ، والثانى أن ترضى

بما أعطاك . والثالث مادامت قوته فى جسدك ألا تعصيه . فهذه شرائط الحمد .

وأضاف القرطبى أن الله سبحانه أثنى بالحمد على نفسه ، وافتتح كتابه بحمده ، فمعنى الحمد لله رب العالمين ، أى سبق الحمد منى لنفسى ، قبل أن يحمدنى أحد من العالمين ، وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة . وحمد الخلق مشوب بالعلل . وقيل لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده ، حمد نفسه بنفسه لنفسه فى الأزل ، فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده . ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله « لا أحصى ثناء عليك » .

وقيل : حمد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده . فحمد نفسه عنهم ، لتكون النعمة أهنأ لديهم ، حيث أسقط عنهم ثقل المنة .

والحمد لله ، تقرأ برفع الدال ، ويكون معنى الآية ، فى هذه الحالة ، أنها تتضمن خبراً معناه أن الحمد من قارئ الآية ، ومن جميع خلق الله ، أى أنه يقرر حقيقة استحقاق الله للحمد عن كل ما يحمد له سواه سبحانه ، ومن جميع خلقه ، فى حين أنه إذا قرأ الآية بفتح الدال ، كان معنى ذلك قوله « حمدت الله حمداً » فكان الحمد — بهذا المعنى — من القارئ وحده .

وقال قوم إنما نقول الحمد لله تعرضاً لعفو الله ومغفرته وتعظيماً له وتمجيداً ، فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . وفى الحديث « من شغل بذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وقال الطبرى ، على حد رواية القرطبى أيضاً ، الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه ، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ، فكأنه قال : « قولوا الحمد لله » .

ويقول الطبرى : معنى « الحمد لله » الشكر خالصاً لله جل ثناؤه ، دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأه من خلقه ، بما أنعم على

عباده ، من النعم التى لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، فى تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه ؛ مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ؛ ومع ما نبههم عليه ، ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود ؛ فى دار المقام من النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخراً .

وعن الحكم بن عمير : إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فى أمرك . قال وقد قيل : إن قول القائل « الحمد لله » ثناء على الله بأسمائه وصفاته الحسنى ، وقوله « الشكر لله ؛ ثناء عليه بنعمه وأياديه » . وعن كعب « من قال الحمد لله فذلك ثناء على الله » . وعن الأسود بن سريع : ليس شىء أحب إليه من الحمد من الله تعالى ، والملك أثنى على نعمته فقال الحمد لله .

وقال أبو جعفر : ولاتمانع بين أهل المعرفة باللغة العربية من الحكم بالصحة لقول القائل : الحمد لله شكراً ، فقد تبين — إذا كان ذلك عند جميعهم صحيحاً — أن الحمد لله قد ينطق به فى موضع الشكر ، وأن الشكر قد يوضع موضع الحمد ، لأن ذلك لو لم يكن كذلك لما جاز أن يقال الحمد له شكراً فيخرج من قول القائل «الحمد لله» مصدر : الشكر ، لأن الشكر لو لم يكن بمعنى الحمد كان خطأ أن يصدر من الحمد غير معناه وغير لفظه .

وقيل إن دخول الألف واللام فى الحمد ، معنى لا يؤديه قول القائل حمداً بإسقاط الألف واللام ، وذلك أن دخولهما فى الحمد منبئ عن أن معناه جميع المحامد والشكر الكامل لله ، ولو أسقطنا عنه لما دل إلا على أن حمد قائل ذلك لله دون المحامد كلها ، إذ كان معنى قول القائل « حمداً لله . . أو حمد لله » أحمد الله حمداً ، وليس التأويل فى قول « الحمد لله رب العالمين » تالياً سورة أم القرآن : أحمد الله ، بل

التأويل فى ذلك ما وصفنا من أن جميع المحامد لله بألوهيته ، وإنعامه على خلقه بما أنعم عليهم به من النعم التى لا خفاء لها فى الدين والدنيا . والعاجل والآجل . ولذلك المعنى تتابعت قراءة القراء وعلماء الأمة على رفع الحمد من (الحمد لله رب العالمين) دون نصبها الذى يؤدى الدلالة على أن معنى تاليه كذلك أحمد الله حمداً . ولو قرأ قارئ ذلك بالنصب لكان عندى محيلا معناه ، ومستحقاً العقوبة على قراءته إياه كذلك ، إذا تعمد قراءته كذلك . وهو عالم بخطئه وفساده .

ثم قال : ما معنى قوله « الحمد لله » ؟ أحمد الله نفسه جل ثناؤه فأثنى عليها ، ثم علمناه لنقول ذلك ، كما قال ووصف به نفسه ؟ فإن كان ذلك كذلك ، فما وجه قوله تعالى ذكره (إياك نعبد وإياك نستعين) ؟ ، وهو عز ذكره معبود لا عابد ؟ أم ذلك من قيل جبريل أو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقد يطل أن يكون ذلك لله كلاماً .

قيل : بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه ، ولكنه جل ذكره حمد نفسه وأثنى عليها بما هو أهل له ، ثم علم ذلك عباده ، وفرض عليهم تلاوته ، اختباراً منه لهم ، وابتلاء . فقال لهم قولوا : (الحمد لله رب العالمين) وقولوا : (إياك نعبد وإياك نستعين) فقوله (إياك نعبد) مما علمهم جل ذكره أن يقولوه ويدينوا له بمعناه ، وذلك موصول بقوله : (الحمد لله رب العالمين) ، وكأنه قال : قولوا هذا وهذا .

وقد أورد الشيخ محمد رشيد رضا ، ما ذهب إليه شيخه محمد عبده من أن الحمد الثناء باللسان ، وقيدوه بالجميل ، لأن كلمة ثناء تستعمل فى المدح والذم معاً ، يقال أثنى عليه شراً ، كما يقال أثنى عليه خيراً . ويقولون إن « ال » التى فى الحمد هى للجنس فى أى فرد من أفراده لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص لأنه لا يصار إلى كل منهما

فى فهم الكلام إلا بدليل . وهو غير موجود فى الآية . وهذه الجملة خبرية ، ولكنها استعملت لإنشاء الحمد . فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل فى أى أنواعه تحقق . فهو ثابت له تعالى وراجع إليه ، لأنه متصف بكل ما يحمد عليه الحامدون . صفاته أجل الصفات وإحسانه عم جميع الكائنات .

وأضاف الشيخ رشيد : التعريف المشهور بين العلماء للحمد : أنه الثناء باللسان على الجميل الاختيارى . أى الفعل الجميل الصادر عن فاعله باختياره . أى سواء أسدى هذا الجميل إلى الحامد أم لا . وأزيد عليهم أنه قد يحمد غير الفاعل المختار تنزيلا له منزلة الفاعل فى نفعه منه : إنما يحمد السوق من ربح . وهذا هو المتبادر من استعمال اللغة . وحذف بعضهم قيد الاختيار ، ليدخل فى الحمد الثناء على صفات الكمال ، ولذلك حذف بعضهم الجميل الاختيارى بقوله سواء كان من الفضائل — أى الصفات الكمالية لصاحبها — أم الأفضال : وهى ما يتعدى أثره من الفضل إلى غير صاحب الفضل ، والظاهر أن الحمد على الفضائل وصفات الكمال إنما يكون باعتبار ما يترتب عليها من الأفعال الاختيارية ، وما عدا هذا من الثناء يسميه العرب مدحًا يقال : مدح الرياح ، ومدح المال ، ومدح الجمال ؛ ولا يطلق الحمد على مثل هذه الأشياء . وقيل هما مترادفان .

وقال النسفى : « الحمد هو الوصف الجميل على جهة التفضيل . وهو رفع بالابتداء وأصله النصب ، وقد قرئ بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة فى معنى الإخبار كقولهم شكراً وكفراً » والعدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره والخبر لله .

واللام متعلق بمحذوف أى واجب أو ثابت ، وقيل الحمد والمدح أخوان ، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها ، تقول حمدت

الرجل على إنعامه ، وحمدته على شجاعته وحسبه .

وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ، وهو بالقلب واللسان والجوارح . والحمد باللسان وحده ، وهو إحدى شعب الشكر ، ومنه الحديث « الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لم يحمده » . وجعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان أشيع لها من الاعتقاد بالجوارح لخفاء عمل القلب ، وما فى عمل الجوارح من الاحتمال ، ونقيض المدح الذم ، ونقيض الشكر الكفران . وقيل المدح ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال ككونه باقياً قادراً عالماً أبدياً أزلياً ، والشكر ثناء على ماهو منه من أوصاف الأفضال والحمد يشملهما . والألف واللام فيه للاستغراق .

وفى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الحمد لله : « الثناء الجميل بكل أنواعه ، وعلى كل حال لله وحده ، ونثنى عليه الثناء كله ، لأنه منشئ المخلوقات والقائم عليها » .

وفى التفسير الوسيط : الحمد هو الثناء على الجميل الذى يصدر عن المحمود باختياره من نعمة أو غيرها ؛ أما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء على صاحبها بالقول . أو مقابلة نعمته بعمل يدل على الاعتراف بها كآداب الجوارح ، أو الشعور القلبى بفضل صاحبها ، لذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا !

وفى تفسير حمزة وعلوان وبرانق :

« الثناء والشكر لله وحده ، الذى يدبر أمر المخلوقات ، ويربى عالم الإنسان والحيوان والنبات . فى الدنيا بالحياة والغذاء والتناسل ، فيمنحها من نعمه ، ما يحفظ بقاءها إحساناً منه ورحمة ، وهو وحده صاحب السلطان والقوة والتدبير يوم القيامة ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ، يوم يحاسب كل إنسان على عمله ، إن خيراً فخير ،

وإن شرًّا فشر » .

فالمفسرون جميعًا قديمهم ومحدثهم ، المسهب منهم والموجز : شغلوا بالجوانب اللغوية من الآية . وتفسير لفظ الحمد : وإيراد معانيه المختلفة والمقارنة بينه وبين لفظ الشكر ، والتساؤل أيهما أوسع نطاقًا وأشمل مدلولا ؟ وأيهما يصدر عن جوارح الإنسان جميعًا ؟ وأيهما يصدر عن اللسان ؟ وبالتالى أيهما أعلى مرتبة : وأعظم مكانًا ؟ ثم التساؤل عن جملة (الحمد لله) خبرية ، أم إنشائية ؟ واللام فى لفظ الجلالة للاستغراق أم ليست له ؟ وقد غاب فى خضم هذه البحوث ، وظيفة هذه الآية ، ودورها ، فى حياة المسلم الذى يخاطب بها ، ويدعى إلى شامل معانيها ، واستخراج ما يكلف أداؤه بهذا التأمل ومقدار ما يفيده منها .

وأول ما يجب أن يسأل نفسه المسلم قارئ هذه الآية ، وهو يتلوها : لماذا يطلب منا الله أن نثنى عليه ، ونحمده ، باللسان وحده أو باللسان والجوارح ، سواء كان الثناء على صفاته أو على نعمائه وآلائه ؟ أليس الله هو الخلاق ، الذى كانت هذه الأكوان التى لاندرى من أمرها إلا ما يشبه النقير والقطمير قيمة ووزنًا بعض صنعه ، وشيئًا من آثار قدرته ؟ فهل هو محتاج إلى حمد وشكر من جنس من مخلوقاته ، هو الإنسان الذى وصفه الله نفسه ، بأنه كان ضعيفًا ولاعزم له ، وأنه هلوع وجزوع ومنوع ؟

إن الفاتحة ، هى أم الكتاب ، وهى فاتحته ، وقد خصها القرآن الكريم بذكر خاص إذ قال : (ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم) ، ولقد استفتحت هذه الفاتحة بـ (الحمد لله) ، وجرت السنة على أن يبدأ بها خطيب يوم الجمعة وكل صلاة جامعة خطبته ، وجرى المسلمون على أن يبدءوا بها أول كلام لهم ، فما الحكمة فى هذا كله ؟

الحكمة فيه ؛ على ما نرى ؛ وفقنا الله إلى الصواب — أن هذين اللفظين هما جماع الدين كله ؛ وخلاصة الحكمة الإنسانية بأسرها ، وأنهما يحويان من المعانى ما يقود الناس إلى العلم ما وسع الإنسان أن يعلم ؛ وإلى السعادة كأعظم ما تكون السعادة المادية والروحية ؛ وتحقق لهم من القوة ، كأشمل ما تكون قوة النفس والعقل والبدن ؟

ولنر كيف اجتمع هذا كله فى حروف ثمانية ؟

ولكن لن يتيسر لنا أن نستظهر هذه الحقيقة الكلية إلا بحقائق تمهد لها .

وأولى هذه الحقائق أن الدين ، فى مفهوم الإسلام ؛ هو العلم والنور ، وأن الكفر والشرك هما الجهل والظلام .

وقد تواترت آيات القرآن الكريم على بيان أن الدين هو العلم والمعرفة ، وأنه ضد الجهل والعمى ، والتخبط فى الدياجير .

ولم يبدأ الوحى بلفظ « اقرأ » عبثاً ، فقد استمرت الحركة الإسلامية منذ البعث حتى النصر الذى كتبه الله للإسلام ، ثم بعد ذلك حتى اتسعت حضارة المسلمين ، تنويراً وتعليماً ، وهداية ، ودرساً ، وبحثاً وجدلا ، وسؤالا وجواباً ، وشكاً ويقيناً .

فالدين جاء ليعلم الناس نواميس هذا الكون ، وليلفتهم إلى مظاهره ، وينبه أذهانهم إلى أحكامه . والسبيل الأوحد لفتح أبواب هذا العلم هو تقرير الحقيقة الأساسية أن لهذا العالم خالقاً واحداً ، وأن جميع ما نراه ونسمعه ونحسه ؛ ونشمه ونتذوقه من عمله ، بل حتى ما لا نفهمه ، ونعيه ، وما لا نحيط به ، ونقف عليه من الظواهر والأمور يرد إلى مسبب الأسباب ، وخالق الأكوان ، ومدبر العالمين ، وأنه أكبر من أن تعيه عقولنا ، وأن تدركه أبصارنا ، فإذا عجزنا عن أن نفهم هذه الحقيقة استحال علينا العلم سواء كان فلكاً أو رياضة أو طبيعة أو كيمياء أو طباً ، كما استحال علينا أن نستنبط العلوم التى نسميها الآن العلوم الإنسانية من تاريخ

واجتماع وقانون ؛ ذلك لأن الشرك بالله يفسد كل العلم إذ ينسب الظواهر والأطوار التى يراها لغير سببها ؛ فيزعم أن إلهه المصنوع من ذهب أو فضة أو من خشب أو عجوة ، هو الذى يسقط الأمطار ، ويصرف السحاب . أو يطلق الصواعق والرعود . أو يجلب النصر ، أو يهزم الأعداء . كما يبعد نحس الطالع ويشفى الأدواء . (فلا إله إلا الله) ليست حقيقة روحية تعبدية ، تلزم للصلاة الصحيحة ، وتقوم عليها العبادة السليمة . إنما هى حقيقة علمية . بل هى أم الحقائق العلمية . لأنها أكثر ثبوتاً . وأعظم صحة من أن واحداً زائداً واحداً يساويان اثنين ، أو من قانون الجاذبية أو النسبية ؛ لأن الإنسان الذى يعتقد أن التوسل إلى وثن . أو تقديم القرابين إليه استجلاباً لرضاه ، أو نفياً لسخطه ، يمكن أن يبدل الجفاف ماء والجدب نماء ، لا أمل فى أن يتعلم شيئاً نافعاً ، أو يعلم هو الآخرين شيئاً مجدياً ، لأنه لو علم شيئاً صحيحاً من حيث أسبابه ونتائجه ، لا يلبث أن يخلطه بوهم من أوهام عقيدته ، فيضيع علمه الصحيح ، الذى يعينه على إقامة حياته ثم تجميلها . وقد يقول قائل ، كيف يلزم الاعتقاد والإيمان بأن (لا إله إلا الله) ليتوفر علم صحيح ، ولتقوم حضارة عظيمة ، وقد كان أهل العصور القديمة وثنيين يؤمنون بعقيدة تقوم على تعدد الآلهة ومع ذلك شادوا المبانى الضخمة ، وشقوا الطرق الواسعة ، واستنبطوا كثيراً من حقائق العلم وطبقوها فى الزراعة والصناعة ، والطب والفلك ؟ والرد على ذلك أن عقيدة الوثنيين كانت تنطوى على بذرة عقيدة التوحيد ، كما انطوت على بذرة الدين السماوى وبمقدار ما اجتمع لهؤلاء من هذه العقيدة . التى تؤمن بوجود إله أعظم ، خالق للناس وللسموات والأرض ، استطاعوا أن يتقدموا . وإنك قادر أن تتبين آثار هذه العقيدة عند المشركين من عرب مكة وعرب الجزيرة كلها فقد كانوا يسلمون بوجود الإله الخالق . ولكنهم كانوا يشركون معه آلهة دونه . والقرآن نفسه

شاهد على ذلك : من ذلك : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، ، (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) ؛ (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد) ؛ ولهذا سموا بالمشركين ؛ لأنهم يشركون مع الله آلهة سواه ، ويتحلون لهذا الشرك أسبابًا فتارة يقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ؛ وتارة يقولون (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) ؛ فعبادتهم لغير الله سببها حينًا أن يتخذوا من آلهتهم وسيلة إلى الله ؛ لأن آلهتهم أقرب إلى أفهامهم ؛ إذ يرونها بالعين ويمسكون بها باليد ، ولأن هذه الآلهة هى آلهة الأجداد والآباء ؛ وهم يحبون أن يكونوا على آثار آبائهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يعلمون .

من كل هذه الآيات يبين أن المشركين لم يكونوا يرفضون عقيدة الإله الأعظم ، ولكن كانوا يرفضون واحدانيته ؛ وهذه عاهة ملازمة للعقل البشرى ؛ فى أطواره الأولى ، وهو لا يقوى على التخلص منها إلا بعد جهد ورياضة ، وهذا ما جاء الإسلام ليقود الناس إليه ، وليحملهم عليه . ومن وسائلها الناجعة لهذه الغاية الكبيرة ؛ فلسفة (الحمد لله) التى نحن بصدد بسطها .

فالعقل البشرى يؤثر التجسيد على التجريد ، ويقدم القريب على البعيد ؛ ويشغل بالمصلحة العاجلة ، عن الفائدة الآجلة . ومن هنا كان الإله الخاص ، أقرب إليه من الإله الأعلى ، وكان الولى أعظم أثراً من تعاليم رب العالمين ، وكان الدعاء إلى الإله فى شأن منصب يرتجيه أو أو ربح يؤمل فيه ، أو امرأة يطمع فيها ، أو كربة خاصة يشكو منها ، أجرى على لسانه ، وأشغل لقلبه ، من الدعاء الذى تكون الغاية منه طلب التوفيق والسداد ، والهداية إلى الخير ، والنجاة من الشر .

ولا يزال العامة ، وبعض الخاصة ؛ فى الشرق والغرب ، وفى القديم

والحديث . سواء كانوا من أهل الأديان السماوية وأديان الحكماء والفلاسفة . يترددون على أضرحة الأولياء ، ويحملون التمائم والتعاويذ والأحجبة . ولا يذكرون الله إلا قليلا . أو لا يذكرونه إلا مقرونًا بولى من أوليائهم . وكأن الولى هو الأصيل . والله — والعياذ به — هو وسيلة أو شفاعة .

ولذلك كانت فلسفة الشرك هى فلسفة الإنسان فى أدواره الأولى ، والتى بقيت — على ما سبق من القول — رواسب منها فى النفس الإنسانية إلى اليوم .

ومن هنا كان الإنسان يوفق فى بعض نشاطه وتفكيره وإنتاجه المادى والأدبى ، لأن فيه آثاراً من الإيمان بالله المجرد السامى ، الذى يهدى إلى محبة الناس والإخاء بينهم ، والإيمان بالعدل والصدق والمساواة . ولكن هذه اللمحات الربانية ، لا تلبث أن تحجبها سحب الشرك ، فتأفل شمس الحضارة الوثنية ، ويسودها الطغيان والاستبداد ، وشهرة الملوك والقادة ، وخوف الفقراء والصغار ، وتخبط الإنسانية كلها فى كل ما تقول وتعمل ، فهى لا تهتدى إلى الحقيقة العلمية ، ولا إلى الحقيقة الروحية ، وإن اقتربت منها خطوة ، بعدت عنها خطوات ، وبقيت هكذا حتى جاء الإسلام ، ليضع للشرك حداً حاسمًا وقاطعًا ، مجرداً ملك الله من كل تجسيد وكل ارتباط بالزمان والمكان ، والشكل والصورة ، والحجم والوزن ، ورد كل الأسباب إليه ، وعودة كل الأمور له (وإلى الله ترجع الأمور) . ومنذ ذلك التاريخ ، تاريخ بدء الحركة الإسلامية ، بدأت الحركة العلمية ، وتحررت العقول والنفوس فى الشرق ، فانطلق الفلاسفة والمفكرون والمشرعون والمصلحون ، يقولون كل شىء فى كل شىء ، وتعددت المدارس ، وتنوعت المذاهب ، وتأمل أهل العقل فى السماء والأرض ، والمعادن والعناصر ، وغزت هذه الروح أوربا غزواً هزّها من الأعماق ، وأخرجها من الظلمات دفعة واحدة ، فغشيت لها عيون ،

وكرهتها أبصار ؛ فكان ما عرفته من ظلمات ديوان التفتيش ومطاردة المفكرين والأحرار ؛ حتى فى ميدان الفلك والطبيعة ؛ وما قصص جليليو وكوبرنيكس وداروين إلا أمثلة مشهورة من مئات الأحوال المجهولة التى أخرت العلم كثيراً . وما جنته الإنسانية اليوم ؛ من ثمار العلم الباهرة ، من بدء استعمال البخار ، حتى الوصول إلى القمر ، ومن خطوات الرياضة البحتة والتطبيقية ، إلى نظرية النسبية ؛ ليس سوى الأثر المباشر لحركة تحرير العقل الإنسانى ؛ على يد الإسلام ، الذى رفع عن الإنسان إصر الوثنية والشرك ؛ الذى حال بينه وبين معرفة أصول الأسباب ، وتبين علة العلل .

ولكن العقل الإنسانى جهاز حديث ؛ وتحرره أحدث منه كثيراً بطبيعة الحال ؛ ولذلك لا يزال معرضاً للغفوة والكبوة ، ميالا إلى العودة إلى ما ألفه واعتاده ؛ وهو ما عبر عنه القرآن (هذا ما وجدنا عليه آباءنا) ، فهو فى حاجة إلى تذكير وتنبيه وإنعاش ، وإلى تسديد وتقويم وهداية ، ومن هنا كانت حكمة (الحمد لله) .

فلا إله إلا الله ، هى الأصل والغاية ، بها أفاق العقل الإنسانى من غفوته ، وخرج من الظلام الكثيف ، إلى نور الحرية الكاملة غير المحدودة ، فلا سلطان على الإنسان إلا للعقل ، إذ سقطت بهذه العبارة الصغيرة سلطة الملوك والقياصرة ، والأمراء والأكاسرة ، كما سقطت سلطة الكهان والأحبار ، ولم يعد الإنسان خاضعاً إلا لما يقنعه ، ولا تابعاً إلا لما يؤمن به ويهتدى إليه . ولم يعد هناك حرم ، لايجوس العقل الإنسانى خلاله ، فهو يقرأ بنفسه لنفسه ، ويسأل ، ويناقش ويجادل ، ويسفه ويؤيد ، ويراجع ما قاله ، ويعدل عنه ويضيف إليه ، ويحل محله سواه ، ويبدأ من جديد ، فما دام العلم غايته ، والحقيقة ضالته ، والمصلحة العامة حافزه ، فكل ما به حرام على الناس ، أى على المسلمين : دمه ، وماله وعرضه . فما دام يؤمن بالله ، أى ما دام عقله قد تحرر ،

وما دام أنه لم يسفك دماً ، ولم يهتك عرضاً ، ولم يسرق مالا ؛ فلا يحق لأحد أن يضع يده عليه ، ولا أن يمسه بسوء ؛ فإن اعتدى عليه معتد فكل المسلمين مطالبون بالدفاع عنه ، وإلا كانوا آثمين ؛ يحاسبون عن تخليهم عن القيام بالتبعة ، وكأنهم كفروا (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

فالحمد لله جاءت أثراً لعقيدة لا إله إلا الله ؛ لا لتحمل الإنسان على الإقرار بعبودية لله ، وحسب ، والإذعان لإرادته وأحكامه فقط ؛ ولو وقف المسلم بالحمد لله عند حد هذا الإقرار المادى ، ولم يكن لها من الآثار على نفسه وعقله ما رسم الله لها ؛ وما قصده سبحانه منها ، لكان إيمانه لفظياً لم يخالط القلب ، وكان من قبيل إيمان الأعراب : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) .

فالحمد لله هى حركة فى ثلاثة اتجاهات :

هى حركة عقلية أولا .

ثم حركة نفسية ثانياً .

ثم حركة وجدانية ثالثاً .

وقبل أن نفهم مدلول الحركة العقلية لعقيدة « الحمد لله » الإسلامية ، يجب أن نعرف ما اندس فى بعض العقائد السماوية من تراث العقائد الوثنية ، فإله الوثنى هو صورة من شيخ القبيلة ومن الملك والسلطان . فهو قوى ، ولكنه باطش مخيف ، لايخيف أعداءه فحسب ، بل أتباعه معاً . وهو يقيم سلطانه على قلوب هؤلاء الأتباع بما يملك من قدرة على الإبادة والإذلال ، وطاقة غضبه تزلزل الصروح من قواعدها ، وتهز أقوى القلوب من مواضعها ، وهو شره لايرتوى من سفك الدماء ؛ ولايشبع

مما يقدم إليه من فروض الخضوع والطاعة ؛ ولا من آيات الخوف من شره ؛ ولذلك تقدم له القرابين بشرية وحيوانية إلى غير حد ، وقد يكون من هذه القرابين الأطفال ، كإله « مولوخ » إله العبرانيين ، والنساء والرجال والفتيات ، وهو غيور ؛ لايكاد يقبل أن يوجد إلى جواره إله سواه ؛ فإذا تمت له السيطرة على عباده وعدهم بالنصر ؛ ومنحهم الغلبة على الأعداء مهما ظلموا ؛ بل إنه يرسم لهم سبيل الكيد للأعداء ، ويدعوهم إلى الغدر والسطو والنهب والحرق ، ويزين لهم الجرائم ، ويباركها من أجلهم ، وقد ورد فى التوراة التى بين أيدى الناس الآن شىء غير قليل من هذه الصورة ؛ وقد بدأ أول العقد بين العبرانيين وإلههم على الوجه الآتى . جاء فى الإصحاح السادس من سفر الخروج :

« أنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين ، وأنقذكم من عبوديتهم بذراع ممدودة ، وبأحكام عظيمة ؛ وأتخذكم لى شعبًا ، وأكون لكم إلهًا » .

وتتوالى نصوص العقد ، فهو يحرض اليهود على سرقة المصريين حين يخرجون من مصر ، فيقول فى الإصحاح الثالث :

« فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهبًا ، وثيابًا تضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين » .

وإلى جانب التحريض على السرقة نرى فى سفر التثنية التحريض على الحريق والتدمير :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها ، يكون لك بالتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك وعملت معك حربًا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فأضرب جميع ذكورها ، بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما فى المدينة وكل

غنيمتها فتضمها لنفسك ، وتأكل كل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك » .

وتأتى بقية النصائح والتوجيهات فى الإصحاح السادس فى سفر يشوع :

« واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها ، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلوها فى خزانة بيت الرب » .

ولهذا فإنه من الجائز أن يقع بين هذا الرب ، وبين النبى موسى حوار يؤنب فيه النبى ربه ، فيقول مثلا فى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر الخروج :

« أرجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك . . فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه » .

فجاء الإسلام لينسخ هذه الصورة ، ويمحو كل آثارها فى نفوس الناس ، فإله المسلمين لايحابيهم ولايعدهم بالنصر ، ولا يمنيهم بالغلبة لمجرد كونهم مسلمين ، فقد أقام الإسلام حكم العلم ، وقرر أن للنصر قوانينه وأحكامه ، فمن يلزمها ، وينزل على مقتضاها يتحقق له نصر الله ، وأولى هذه القواعد أن يكون القتال من أجل الله ، وفى سبيل الله ، أى من أجل الحق ، ولإقامة العدل ، ولنصرة الضعيف . (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) ، فمعنى آية (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) هو إقامة الإسلام ، أى إقامة العدل والحق . فليس يكفى أن يكون عدو المسلمين من غير المسلمين ، أو أن يكون مشركاً ، ليضمن المسلمون الفوز عليه ، إذ لابد أن يكونوا أهلاً للنصر فى ذاتهم من التقوى والصلاح ، والقوة والاتحاد ، والصبر فى الشدة ، والعفو عند المقدرة ، والسهر فى الليل ، واليقظة فى النهار ، وإعداد أسباب النجاح والتماس وسائله .

وبعد فإله المسلمين هو إله كل الناس : المشرك والكافر والمؤمن والصالح . الأبيض والأسود .

فإذا اتضحت كل هذه الأحكام : أمكن أن نفهم كيف أن (الحمد لله) تستدعى حركة عقلية من قائلها . فالمسلم يعلم أن لهذا الكون سننًا : أى قوانين تضبطه : وهى سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل (فلن تجد لسنة الله تبديلا) ؛ (ولن تجد لسنة الله تحويلا) . وإننا مطالبون بأن نتأمل هذه السنن : وأن نفهمها ، وأن نرى آثارها فى الكائنات : وفى الأحياء وفى أنفسنا : وفيما يطرأ من الأحداث وما يجدّ من الأمور ، لنكون قادرين على أن ننتفع بما سخره الله لنا من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والجبال والبحار . والأنعام والأنهار (أفلم يسيروا فى الأرض) .

فإذا حل بالإنسان شىء مكروه أو مرجو ، وقلنا الحمد لله ، فمعنى ذلك أننا فكرنا فى هذا الذى أصابنا ، ولم ندعه يمر بنا ، بل عرفنا أنه وقع تطبيقًا للقاعدة الكلية الكبرى ، أى أنه جاء طبقًا لقانون من قوانين هذا الكون المادية أو الروحية ، وأن علينا أن نعرف أسبابه ومقدماته ، لنستزيد من الخير إن كان خيراً ، ولندفع الشر إن كان شرًّا .

ولكن ما هو الدليل على صحة هذا التفسير ؟

الدليل على هذا أنه ما من شىء يطلبه الله من عباده ، أو يفرضه عليهم حتى العبادات والكفارات ، إلا والحكمة من تقريره خير العباد . فالصلاة والصوم والزكاة والحج كلها عبادات الغاية منها إصلاح نفوس الناس ، ومنحهم زيادة من القوة ، ولطف المعاملة ، وصدق العهد ، واحتمال الشدائد ، والسعى لخير الناس ، والإيمان بالحق والعدل ، وهم بهذا يكسبون كسبًا شخصيًا ، وماديًا ، إلى جانب المنافع العامة ، والفضل الروحى .

ويستفاد هذا من قوله تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها

ولكن يناله التقوى منكم) . وما تقرره هذه الآية هو مبدأ عام ، لاينصب على الأضاحى التى يتقرب بها العباد إلى ربهم ، بل يشمل كل قربى إلى الله ، ولو كانت عبادة مسنونة ومفروضة على جميع المكلفين .

فالحمد لله هى دعوة لتفكير العبد فيما يجرى فى هذه الدنيا له ولغيره ، ليكشف ما ينطوى عليه . فإذا تأمل فسيعرف . ويقوم الحمد أو الشكر ، مقام المعرفة ، فالشاكر والعالم والشكور والعليم ، كأنهما مترادفان وإليك البيان :

فى سورة المائدة جاء قول الله تعالى (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) ، وجاء فى سورة الأعراف قوله عز وعلا : (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) وفى سورة لقمان : (ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، وفى البقرة : (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) . فالشكر هنا يأتى دائماً ، بعد موضع تكشف فيه الحقائق للناس ، فالله يبين للناس آياته ، ليريهم إياها . ويتبع هذا كله بما معناه ، أن النتيجة لهذا العلم ، أن تشكروا ، أى أن يعلموا العلم الذى ينطوى على الحمد لله والثناء عليه والشكر له . لأن غاية العبادة أن يعرف الناس حقيقة ربهم ، وأن يزدادوا علماً بأحكامه ، فحينما يصلون إلى مرتبة العلم يشكرون ، أو حينما يصلون إلى مرتبة الشكر يعلمون . ولعل هذا المعنى يزداد وضوحاً فى قوله تعالى فى سورة إبراهيم : (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، وقوله فى سورة لقمان : (ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) . ويصف الله تعالى ذاته بقوله : (ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) ، ثم (وكان الله شاكراً عليماً) . واقتران العلم بالشكر يدل على أنهما بمعنى واحد . أو أن أحدهما يؤدى إلى الآخر ، أو يقترن به أو يقوم مقامه ، فلا يشكر أفضال الله ونعماءه وآلاءه إلا من عرفها ، ولا يعرفها إلا من شكرها . ويزيد ذلك

المعنى وضوحاً قوله تعالى : (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم) : (لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) فإن الشكر هو بمعنى العلم ، فإنكم لاتعلمون إلا لتزدادوا فضلا ، فالخير عائد عليكم من هذا العلم ، وكلما شكرتم ازددتم فضلا ، لأنكم تزدادون علماً . والله تعالى لا يحتاج إلى شكركم وإنما أنتم المحتاجون إلى هذا العلم . وقد يمنحكم الله أفضالا ، ويبسط لكم فى الرزق والصحة ، لترروا هل تعلمون قيمة ما أعطاكم فتحسنوا الانتفاع به والمحافظة عليه فتزدادوا خيراً : (هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر) .

فالحمد لله ، هو عملية عقلية ، لأنه لا يتأتى إلا لمن تأمل فى الكون ، وشغل عقله بأسراره ، وتحمل النصب والتعب ، ليقف على أحكامه ، وهو كلما بحث وتأمل زاد الكون أمامه اتساعاً ، وزاد فى عينيه عظمة وضخامة ، فإذا به وحده محمول على الشعور بعظمة خالق هذا الكون ، فيحمله شعوره هذا بدوره إلى التعبير عنه بقلبه ولسانه ، ولا يزال فى حلقة مفرغة يتأمل الكون ، ويكشف أسراره ، فيزداد شغفاً بالبحث ، والبحث يزيده بالكون وخالقه إعجاباً وتقديراً وتقديساً ، ويزداد رغبة فى مواصلة النظر فى قوانين الدنيا ، فيزداد علماً ، وكلما علم زاد تقديره وحبه لهذا النظام الدقيق الذى يعلوعلى كل عقل وفهم . والذى يعلن للعالم الشكر عظمة الله غير المتناهية ، وقدرته غير المحدودة . فيزداد هو قوة إذ يزداد علماً أو إيماناً أو شكراً ، كيفما شئت .

فالحمد لله هى حافز متجدد لعقل الإنسان ، يدفعه إلى مواصلة التفكير ، وإلى الإصرار على النظر ، وعلى استحثاث الخطى فى استكناه حقائق العالم الذى نعيش فيه ، والذى أخبرنا الله سبحانه تعالى بأنه سخره لنا وأنه لاسبيل إلى الانتفاع بهذا التسخير إلا بمحاولة تبين المفاتح المفضية إلى قواه المخبوءة ، وثرواته المكنوزة ، وقد أجمل الله سبحانه وتعالى هذا كله بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

أما أن (الحمد لله) هى حركة وجدانية ، فنحن فى حاجة إلى تشبيه . لتوضيح المقصود من ذلك .

أفرأيت اثنين يقفان أمام منظر طبيعى جميل . أو لوحة فنية بارعة ؟ ثم أرأيت أحدهما يمر بالمنظر أو اللوحة لايحس بما فيهما من جمال . ولا يستمتع بما يحويانه من تناسق تطيب له النفس ، ومن لطف اللون أو الحركة . مما تصقوله المشاعر ، وتعلو به عن مشاغل الدنيا ، وهمومها ، فى حين يقف الثانى مأخوذاً بالجمال ، لايكاد يستطيع الحركة ، فينسى نفسه . وينسى من حوله وما حوله ؟ فإذا أفاق بعد طول الوقفة ، أحس بالراحة والسعادة والقوة معاً ، وكأن هذه الوقفة زاد مادىّ صرف ذهنه عما كان يشغله . وعلا بنفسه عن سائر الناس ، فأصبح أكثر قدرة على مواصلة السعى فى الحياة ، وأعظم إحساساً بما فيه من حب للخير . وشعور بالجمال .

هذا بالضبط تفسير (لئن شكرتم لأزيدنكم) ، فإن وقفة صاحب الإحساس أمام المنظر الجميل ، واستغراقه فى تأمله واستشعاره بالسعادة والغبطة فى الاتصال به والنظر إليه ، هى بالضبط ما يساوى (لأزيدنكم) فكلما زاد الإنسان إحساساً بالجمال زاد إحساسه دقة وزاد حبه للجمال : فزاد شعوره رقياً ، وزادت نفسه اتساعاً ، وهو إذ يقف أمام المنظر الجميل ، يقف شاكراً ، مادحاً ، مثنياً ، مقدراً ، وإن لم يقل بلسانه حرفاً واحداً ، ولكن وقفته ، ونسيانه كل شىء ، واكتفاءه بالنظر وارتفاعه عن الدنيا بكل أصواتها وحركاتها ، كل ذلك هو الشكر الناطق ، والحمد المسموع ، والثناء الملموس .

وهو لا يشكر ، حتى يزداد فى اللحظة سمواً وقوة ، وهو لا يزداد سمواً وقوة ، حتى يزداد حباً وتقديراً ، فهى الدائرة المفرغة لايدرى أين طرفاها : تشكر فتزداد ، وتزداد فتشكر ، وهكذا لاتزداد قوة ، إلا لتزداد قدرة على الشكر ، لأنه عنوان القوة ومظهرها الخارجى . أما من يمر بلوحات الكون

وأسراره ؛ وهو أعمى لايرى ؛ فهو كالحجر الأصم الأبكم ؛ لايعى ولا يشعر ؛ فتسد أمامه مصادر الإلهام ومنابع القوة ، ولهذا فالكون يقول له : إنى عنك لغنى !

أما أن الحمد لله حركة نفسية ؛ تأتى بعد التعقل والإحساس . فذلك لأن الإنسان فى هذا الكون الفسيح المترامى ؛ حقير لا سند له ؛ خائر لا هادى يأخذ بيده ؛ يبدو له كل شىء غامضاً ؛ ويبدو له كل شىء فى هذا العالم أقوى منه وأعظم ، ثم إن الأحداث ؛ لاتقف لحظة ، فهى فى استمرار متصل ؛ وتطور دائب ؛ وتغير لاينتهى ؛ وهذه الحركة تسبب للكائن الحى ؛ من الآلام والأحزان والمخاوف ؛ ما لا قبل له به وحده ما لم يعنه معين . فإن هذه الحركة . تنزع الإنسان من المكان الذى يألفه ؛ والجماعة التى يعرفها ؛ والحقائق التى يطمئن إليها ، والوسائل التى يحسن استعمالها ؛ وتلقى به فى بحر متلاطم من الصور الجديدة ، والعلاقات الطارئة ؛ والأفكار المستحدثة وتطلب منه فى الحال أن يتكيف مع هذا الجديد ، وإلا ابتلعه الموج وأطبقت عليه العوالم الجديدة فغيبته فى جوفها.

ولذلك فإن الإنسان فى حاجة مستمرة إلى أن يتبين حقائق ما يجد به من الأحداث وما ينزل بساحته من النوازل ، فإن لم يتبين أن هذا التغير المستمر ليس شراً وليس خيراً ، وأن هذا العالم ليس عدوه وليس صديقه ، وأن مصدر القوة نفسه ، وموطن الطاقة قلبه ، ومنبع النور عقله ، وأن عليه أن يرى فى كل ما يصيبه نصيباً من الخير ، وبذرة للأمل ، لا على سبيل العزاء والتسرية ، بل على سبيل استقراء الواقع الصادق ، إذ أن (مع العسر يسراً) ، (وتلك الأيام نداولها بين الناس) حقائق علمية ، وأنها تمنح العالمين بها ، والواقفين عليها ، قوى لا حد لها .

وليس ثمة عدو أقسى للنفس الإنسانية من اليأس ، وليس ثمة داء أشد فتكاً بها من الخوف ، ولا يحمى الناس ويحصنهم من اليأس والخوف

إلا فهم صحيح . وتطبيق سليم لحكمة (الحمد لله) ؛ فإنها تبدد الظلام ، وتقشع لها الظلمات وتجدد لها الآمال . وتتسع بها الدنيا ؛ فيزداد الإنسان قوة . ولا يزداد قوة إلا وقد ازداد قدرة على الإعجاب ؛ بما فى هذه النفس الإنسانية من طاقات لايعرف الإنسان مداها ؛ لأنه لا يفكر فيها ؛ ولا يمد يده نحوها ليستخرجها .

فالحركة النفسية التى تبعثها (الحمد لله) فى الإنسان ؛ أو تبعثه هو على إتيانها ؛ ليس مجرد العزاء الذى يسبغه التسليم لقدر الله ؛ والإذعان لحكمه باعتبار أن التمرد عليه معصية ؛ ومعصيته لا نفع منها ، ولا جدوى فيها . بل إنه حركة إيجابية قوامها المبدأ القرآنى (وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم) ؛ (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) ؛ فالمسلم الذى يقول (الحمد لله) إذا أصابته مصيبة (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنالله وإنا إليه راجعون) يقولها ليستخرج منها قوة ، لا لأنه يقارن نفسه بمن هم أشد منه ابتلاء فقط ، بل لأنه يؤمن بأن فى تضاعيف ما يبدو لنا شرًا خيراً من نوع ما ، وأن المؤمنين ينهاهم إيمانهم عن أن يفرحوا بما آتاهم الله ، ولا يأسوا على ما فاتهم فالحياة ليست كسبًا فقط ، ولافوزاً دائمًا ، وإنما هى قبض وبسط ، وإدبار وإقبال ، وإن الإنسان يحكم على الأمور بمقياسه الصغير ، وينظر إليها بمنظاره القصير ، فى حين أن الواجب يقتضيه أن ينهض بواجباته ، ويؤدى تكاليفه ، حتى يبدو الخير ؛ فى جملة الحياة التى يحياها الفرد ؛ ثم فى جملة الحياة الإنسانية ؛ باعتبارها كلاً لايتجزأ تطبيقًا للمبدأ المقرر فى الآية الكريمة (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا) .

فالحمد لله — إذن — هى مذهب كامل ، من مذاهب الحياة والإيمان ، يتفرع أساسًا عن المذهب الشامل الكامل مذهب الإسلام القائم بدوره على أن لا إله إلا الله ، وأنه مذهب ذو ثلاث قوائم ، قائمة

عقلية : وقائمة وجدانية روحية وقائمة نفسية ذاتية ؛ وأن غاية المذاهب حماية العقل الإنسانى والنفس الإنسانية فى مواجهة ما يهبّ عليهما من رياح الأضاليل والأكاذيب ؛ ولو تسترت فى شكل العلم ؛ واختفت وراء اسمه ؛ وتوفير الحيوية له ؛ لكى يقف ديدبانًا ساهراً لايغفل ؛ وحارسًا لاينتابه تعب ولا ميل للراحة ؛ بل لايدع العقل الإنسانى ينزلق إلى الغفوة . أو يتوق إلى الراحة : إنها ناقوس يدعو إلى التأمل الدائم ، والتفكير المتصل ؛ إنها دعوة لتدبر آفاق الأرض والسموات وآفاق النفس الإنسانية التى تشبه الأرض والسماء اتساعًا ؛ فالحمد لله أولا وآخراً .